السرعة وبلاغة العمل الأدبي

د. فتحي عبد القادر فريد

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيّام، والصلاة والسلام على خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

وبعد :

فلما كان الناس يعيشون في عالم تعد السرعة أوضح معالمه، وأهم خصائصه، وكانت مضار تلك السرعة على العمل الأدبي أكثر من منافعها، وسيئاتها تفوق حسناتها حيث تهوى بقيمته، وتفسد بلاغته، وتذهب بآثاره كتبت هذه الصفحات في التنبيه إلى أفضال التأني والتروي، والتحذير من عواقب التعجل والتسرع في صناعة العمل الأدبي عسى أن تعيد اليه مجدا كان يصاحبه، وبلاغة كانت تاجه.

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»

العمل الأدبي والصناعات المختلفة :

ان الدور التي نقيم فيها لم تقم وحدها، ولم ترتفع ذلك الارتفاع بين يوم وليلة، ولكنها مرت في بنائها بمراحل متعددة، وتعاقب عليها أفواج

من العمال وأصحاب الحرف والصناعات المختلفة حتى وصلت الى ما هي عليه وأصبحت صالحة للسكنى والاقامة وتتلخص تلك المراحل المتشابكة في : تحديد المكان واختياره – وإعداد شكل البناء وصورته – وتوفير المواد التي يعتمد عليها البناء – ثم قيام العمال والصناع على تجهيز البناء وإعداده.

وتستغرق كل مرحلة من المراحل السابقة قدراً من الوقت، وتأخذ طاقة من الجهد لتنفيذها على الوجه السليم، وعلى قدر الجهود المبذولة في اتمام المراحل تتحدد قيمة البناء المادية والمعنوية، ومدى صلاحيته واستمراره – فنحن نرى من وقت لآخر أبنية تنهار بعد أيام من الانتهاء منها، بل أخرى تسقط قبل اتمامها والفراغ من بنائها – ويكون ذلك لأسباب يأتي في مقدمتها من غير شك : التسرع والعجلة وعدم التأني في تنفيذ المراحل السالفة وتوفية كل منها ما تحتاجه من وقت وجهد – وينطبق ذلك على كل الأعمال وجميع الصناعات.

والعمل الأدبي(١) من لحظة البدء فيه الى حين الانتهاء منه، أو من لحظة كونه فكرة عابرة الى أن يصبح ثمرة ناضجة لا يختلف عن أي عمل، ولا يفترق عن أية صنعة، من حيث إنه يعتمد على عناصر، ويمر بمراحل لابد أن ينال كل منها حقه الأوفى، ويحصل على نصيبه الأوفر من الاهتمام والعناية بصبر وتثبيت حتى يبلغ درجة النضج، ويحظى بمنزلة من البلاغة.

وقد أجاد «ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦هـ في تحديد المراحل التي يمر بها كل عمل من الأعمال ومنها العمل الأدبي بخمسة أمور: الموضوع، والصانع، والصورة، والآلة والغرض.

وقرر رحمه الله أن أية صناعة لا تبلغ درجة اكتمالها إلا اذا تمثلت فيها الأمور السابقة آخذة نصيبها من العناية والرعاية.

ووضح رحمه الله مكانة كل عنصر مما سبق وأثره في العمل الذي ينتسب اليه، وذلك بالتمثيل بصناعة النجارة. فذكر أن: الموضوع: يماثل الخشب في صناعة النجارة وأن الصانع يماثل: النجار.

وأن الصورة تماثل : مكان الجلوس إن كان المصنوع كرسيا.

وأن الآلة تماثل : المنشار والقدوم وما يجري مجراهما.

وأن الغرض يماثل : الغاية التي صنع من أجلها الكرسي وهو الجلوس عليه.

وبيَّن «ابن سنان» منزلة هذه العناصر من العمل الأدبي قياسا على ما سبق.

فموضوع الكلام والكتابة: الألفاظ المؤلفة من أصوات وحروف.

وصانع الكلام هو: المؤلف الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض – كالشاعر والكاتب وغيرهما.

والصورة : كالفصل للكاتب والبيت للشاعر، وما جرى مجراهما.

والآلة هي: طبع هذا الناظم، والعلوم التي اكتسبها بعد ذلك، حيث لا يستطيع أن يعلم الشعر من لا طبع له وإن جهد في ذلك، لأن الآلة التي يتوصل بها غير مقدورة لمخلوق، ويمكن تعلم سائر الصناعات لوجود كل ما يحتاج اليه من آلاتها.

وأما الغرض : فبحسب الكلام المؤلف، فان كان مدحا كان الغرض به قولا ينبيء عن عظم حال الممدوح، وان كان هجوا فبالضد – وعلى هذا القياس كل ما يؤلف(٢).

فنرى من كلام «ابن سنان الخفاجي» أن العمل الأدبي مثله مثل كل الأعمال لا يبلغ نضجه، ولا يوصف بالبلاغة إلا اذا اعتمد على الأمور السابقة مستوفية نصيبها من التحقيق والتدقيق بصبر وطول أناة.

مع بِشْر بن المعتمر وأبي هلال العسكري :

ونظرا لأهمية الصبر وطول الأناة في صناعة الأدب وما لهما من أثر بالغ في تحقيقه لأهدافه، ووصوله لغاياته فانا رأينا كثيرا من علماء الأدب والبلاغة يرسمون السبل ويحددون الضوابط التي يحتذيها أهل الأدب من الشعراء والخطباء والكتاب وغيرهم حتى يكتمل عملهم، ويخلو من المعايب والمآخذ، ويقع من البلاغة موقعا مقبولا فهذا «بشر بن المعتمر»(٣) في وصيته المعروفة لأهل الأدب يحدد ثلاث منازل لمن يقبل على الكتابة تعتمد كلها على التثبيت والتروي وعدم التسرع.

المنزلة الأولى : أن يمضي الكاتب في كتابته عند حضور المعاني في ذهنه ظاهرة مكشوفة وقريبة معروفة، وانقياد الألفاظ له شريفة عذبة وفخمة سهلة.

المنزلة الثانية : أن يؤجل الكتابة الى ساعات ينقدح فيها فكره، ويتفتح ذهنه، فتواتيه الفِكَر طائعة، وتقبل عليه الألفاظ راضية وذلك عندما يجد نفسه مندفعا للكتابة متكلفا لمعانيها متعملا لألفاظها.

المنزلة الثالثة : أن يتوجه الى صنعة أخرى غير صنعة الكتابة يفرغ فيها جهده ويعطيها وقته واهتمامه اذا لم تسعفه القريحة، ولم تواته السليقة في وقت يشعر فيه بالراحة والهدوء جسميا ونفسيا.

فلو تأمل الأدباء والكتاب المنازل السابقة وحاولوا السير على هديها الذي يعتمد كما ذكرنا على الصبر والروية لكان نتاجهم الأدبي في معظمه بالغا أهدافه محققا لأغراضه كما تبدو فضيلة الصبر وعدم التسرع في معالجة الكتابة واضحة في وصية «بِشْر» التي يحذر فيها الكُتّاب من الشروع في الكتابة في أوقات التعب وساعات تكاثر الهموم والصبر والتأني الى أوقات يكون البال فيها مرتاحا والفكر صافيا «خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها إياك فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرَّة، من لفظ شريف، ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة(٤).

كما نجد الروية والتأني في نسج العمل الأدبي هي الزاوية التي يدور حولها كلام «أبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ» في الباب الذي تحدث فيه عن: «صنعة الكلام وترتيب الألفاظ»، وقد أفرد فيه فصلا عن فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه، فبالنسبة للكتابة يدعو الكتاب الى :

استحضار المعاني في الذهن، واختيار الألفاظ المناسبة لها، والاقبال على الكتابة عند النشاط وراحة الجسم والنفس، والإمساك عند التعب والملل، وأن يراجع الكاتب ماكتبه عبارة عبارة، فاذا بدا له لفظ أحسن من لفظ، أو

معنى بديع التقطه بسرعة قبل أن يفلت منه «اذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، وتنوَّق(١٦) له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلبها، واعمله مادمت في شباب نشاطك، فاذ غشيك الفتور، وتخونك الملال فأمسك، فان الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضجر خسيس، والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد من الري، وتنال أدبك من المنفعة، فاذا أكثرت عليها نضب ماؤها، وقل عنك غناؤها، وينبغي أن تجري مع الكلام معارضة، فاذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته، أو معنى بديع تعلقت بذيله، وتحذر أن يسبقك فانه إن سبقك تعبت في تتبعه، ونصبت في تطلبه، ولعلك لا تلحقه على طول الطلب، ومواصلة الدأب، وقد قال الشاعر:

اذا ضيعت أول كل أمر
أبت أعجازه إلا التواء(١)

وكذلك بالنسبة للشعر دعا «أبو هلال» الشعراء الى مراعاة الضوابط والاشارات السابقة «واذا أردت أن تعمل شعرا فأحضر المعاني التي يريد نظمها فكرك، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزنا يتأتى فيه ايرادها وقافية يحتملها، فمن المعاني ماتتمكن من نظمه في قافيته ولاتتمكن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقا كلفة منه في تلك، ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجيء سلسا سهلا ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجيء كزًّا فجًّا، ومتجعدا جلفا، فاذا عملت القصيدة فهبها ونقحها بالقاء ماغثَّ من أبياتها، ورثَّ ورذُل، والاقتصار على ما حسن وفخم بابدال حرف منها بآخر أجود منه، حتى تستوى أجزاؤها، وتتضارع هواديها وأعجازها»(٧).

وذكر «أبو هلال» أن عددا من الشعراء قد احتذوا ذلك المنهاج، ونفذوا تلك الضوابط فجاءت أشعارهم خالية من المعايب والمآخذ إلا في النادر أمثال: زهير والحطيئة وأبو نواس والبحتري ومن حذا حذوهم ممن عرفوا بعبيد الشعر «وقد كان هذا دأب جماعة من حُذَّاق الشعراء من المحدثين والقدماء منهم: زهير – كان يعمل القصيدة في ستة أشهر، ويهذّبها في ستة أشهر ثم يظهرها، فتسمى قصائد الحوليات لذلك، وقال بعضهم: خير الشعر

الحولي المنقح، وكان الحطيئة يعمل القصيدة في شهر، وينظر فيها ثلاثة أشهر، ثم يبرزها وكان «أبو نواس» يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيلقي أكثرها ويقتصر على العيون منها، فلهذا قصر أكثر قصائده وكان البحتري يلقي من كل جانب قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذبا، وكان أبو تمام لا يفعل هذا الفعل، وكان يرضى بأول خاطر فنعى عليه عيب كثير»(٨).

وهكذا نرى أن الضوابط السابقة لأهل الأدب من الكتاب والشعراء تعتمد في تنفيذها على الصبر والروية وتعهد العمل الأدبي بالتأمل والمراجعة، والعودة اليه من لحظة لأخرى بالتهذيب والتنقيح حتى يبلغ درجة النضج، ويحقق الغرض الذي جاء من أجله مما يجعله جديرا بدخول دائرة البلاغة كما عرفها «أبو هلال العسكري» بأنها: ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن»(٩) أو كما عرفها الخطيب القزويني المتوفى سنة ٧٣٩هـ بأنها: «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته(١٠).

مع «أحمد حسن الزيات»(١١)

ولما كان للصبر على صناعة العمل الأدبي الآثار الحميدة التي يتمثل أهمها في إلباسه كسوة البلاغة، وللتسرع وعدم التروي العواقب الوخيمة التي تنتهى به الى عدم الاحترام وضياع الهيبة فقد كان الأديب المرحوم «أحمد حسن الزيات» على حق وصواب عندما قرر أن السرعة ومعها الصحافة، والتطفل من أسباب التنكر للبلاغة وذلك في مطلع كتابه: «دفاع عن البلاغة» تحت عنوان: «أسباب التنكر للبلاغة» فقال: «السرعة، والصحافة، والتطفل هي البلايا الثلاث التي تكابدها البلاغة في هذا العصر»(١٢).

فأوضح «الزيات» أن خطورة السرعة كان على الفكر بصفة عامة، وعلى البلاغة بصفة خاصة.

فكانت جريرتها على الفكر أن استحال تقدير القيم التي يحتاج وزنها الى الروية والتأمل، أو الأناة والصبر، فظهر الخبيث في صورة الطيب، ودخل الرديء في حكم الجيد، وقس كل عمل بمقياس السرعة لا بمقياس الجودة !.

وأما جريرتها على البلاغة فانها أصابت الأذهان فلم تعد تملك الاحاطة بالأطراف ولا الغوص الى الأعماق، فجاء لذلك أكثر انتاجها من الغثاء الذي لا رجع منه، أو من الزبد الذي لا بقاء له، كما أصابت الأفهام فلم تعد تصبر على معاناة الجد من بليغ الكلام، فكان من ذلك انكبابها على الأدب الخفيف الذي لا غناء فيه ولا وزن له، وأصابت الأذواق كذلك، فلم تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة، فاختلط الحلو بالمر والتبس الفج(١٣) بالناضج.

وختم «الزيات» حديثه عن السرعة بأنها قد تقع خطأً في موازين بعض النقاد فيحسبونها شرطا في حسن الانتاج، وربما عابوا الكاتب المروي بالابطاء، وغمزوه بالتجويد، وسفهوا قول الحكيم: لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده، فان الناس لا يسألون في كم فرغ؟، وانما يسألون عن جودته واتقانه».

أما عن «الصحافة» ودوها في أسباب التنكر للبلاغة فلأنها تقوم بعرض الأخبار العالمية، وتسجيل الأحداث اليومية، ونشر الثقافة العامة، وهي في كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسط والاسفاف والمط مراعاة للموضوعات التي تكتب فيها، وللطبقات التي تكتب لها، وللسرعة التي تعمل بها.

وأما «التطفل» فانه يتمثل في من يدعون صناعة الأدب، ويصنعون أنفسهم في صفوف الأدباء بدون أن يطبعوا على الأدب، أو يأخذوا بأسبابه(١٤).

وواضح أن الأمور الثلاثة السابقة التي كانت وراء تدهور البلاغة في العصر الحديث في نظر المرحوم: «أحمد حسن الزيات» وهي: السرعة، والتطفل، والصحافة لم تخرج عما ذكره البلاغيون والنقاد العرب وان كان وضعها تحت عناوين محدثة يوهم أنها إضافات جديدة، فمشكلة عدم التروي في صنع العمل الأدبي عبر عنها بالسرعة، ومشكلة ممارسة أفراد لصناعة الأدب من غير استعداد وتهيؤ لها عبر عنها بالتطفل – ومشكلة دنو الأساليب وانحطاط شأنها عبر عنها بالصحافة – واذا كانت الأمور السابقة قد وردت عند السابقين مع أمور كثيرة، فقد

عدها «الزيات» وحدها المسئولة عن تدهور البلاغة في العصر الحديث.

وواضح أيضا أنه لا يقصد البلاغة كعلم وقواعد، وانما يقصد الأعمال الأدبية التي تعد البلاغة أسمى غاياتها وأبعد مراميها.

الخاتمة :

ولما كان الصبر على صناعة العمل الأدبي يحقق له سمو المكانة وعميق الاحترام والتقدير مما يمكنه من طول البقاء ويزيد من افادة الدارسين منه وكثرة ترددهم عليه فان التسرع والعجلة يضعفان من مكانته ويقللان من هيبته مما يجعله قصير العمر وقليل الافادة وضعيف التأثير (١٥).

وهناك لخطورة السرعة ما يعد أشد مما سبق، وذلك هو ركود البحث الأدبي وجموده، حيث يتحاشى الباحثون تناول موضوعات سبقت دراستها وان كانت الدراسة السابقة لم تأت بفوائد ولم تضف جديدا، فلم يفد السابق ولم يبتكر اللاحق وأعتقد أن جريرة ذلك على الفكر خطيرة وعلى البحث شديدة.

واذا كان صاحب العمل المتقن يلقي تقدير الناس وحبهم ويحظى باحترامهم وثنائهم فانه من غير شك يكون أرفع قدرا، وأعظم ثوابا وأجرا عند الله الذي لا يظلم الناس شيئا وصدق الرسول ﷺ في قوله: «ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

● الهوامش ●

(١) وهو التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية.

سيد قطب - النقد الأدبي - أصوله ومناهجه ط رابعة - بيروت ١٩٦٦م.

(٢) انظر : ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة - ص ٨٢ وما بعدها - تحقيق: عبد المتعال الصعيدي - مطبعة صبيح ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

(٣) المتوفّى سنة ٢١٠هـ.

(٤) راجع: البيان والتبيُّن - الجاحظ تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط رابعة - القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م جـ١ ص: ١٣٥ ومابعدها.

(٥) أي تخير - من تنوّق في الأمر: تأنق فيه.

(٦) أبو هلال العسكري، الصناعتين ص:

١٣٩ – تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ط عيسى الحلبي.

(٧) الصناعتين ص : ١٤٥.

(٨) الصناعتين ص : ١٤٧.

(٩) الصناعتين ص : ١٦.

(١٠) عبد المتعال الصعيدي.

بغية الايضاح ١ : ٢٦ ط سادسة – القاهرة.

(١١) ولد سنة ١٨٨٦م، وتلقى العلم في الأزهر، واشتغل بتدريس اللغة العربية في المدارس الفرنسية، وحصل على اجازة الحقوق من باريس، كما درس اللغة العربية وآدابها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وانتدب سنة ١٩٣٠م للتدريس بدار المعلمين العالية في بغداد، وعاد الى مصر سنة ١٩٣٣ وأنشأ مجلة «الرسالة» عقب عودته، ثم انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ورأس تحرير مجلة الأزهر، وانتقل الى رحمة الله في سنة ١٦٩٨م.

ومن أهم آثاره: وحي الرسالة في أربعة أجزاء – دفاع عن البلاغة – تاريخ الأدب العربي. كما ترجم الى العربية «آلام فرتر» لجيتة – وروفائيل للامرتين.

د. بدوي طبانة – البيان العربي ص: ٣٩٨ ط رابعة مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

(١٢) أحمد حسن الزيات – دفاع عن البلاغة ص: ٥ مطبعة الرسالة ١٩٤٥م.

(١٣) الفِجّ : بكسر الفاء البطيخ الشامي الذي يسميه الفُرس الهندي وكل شيء من البطيخ والفواكه لم ينضج فهو فِجّ بالكسر.

الرازي – مختار الصحاح ص: ٤٩١ مادة = ف ج ج ط أولى، بيروت ١٩٦٧م.

(١٤) اقرأ : دفاع عن البلاغة ص: ٥ ومابعدها.

(١٥) ويقول «الزيات» في ذلك: «دعك من هؤلاء وأولئك وانظر أنت في الأسلوب الذي ارتضيته لنفسك فتعهده بالتصحيح والتنقيح مااستطعت، ولا تحفل بالزمن الذي تنفق فيه، فانك تخلق الخلق ليعيش، وتبدع الأثر ليخلد، والزمن لا يبقى على عمل يتم بدونه، وما العبقرية كما يقول «بوفون» إلا صبر طويل، ولا عليك أن يقال عنك: إنك بطيء بكيء، فان زهيرا لم يعبه أحد بحولياته وابن المقفع لم يغض من عبقريته قلة مؤلفاته، وأبو نواس شهر بالتخير والتفكر، كما شهر «أبو العتاهية» بالارتجال والاقتضاب، فجاء شعره كله من حر الكلام ومختاره... وجاء في أخبار العلماء باخبار الحكماء للقفطي قوله: تفاخر «ايرخس» الشاعر اليوناني و«أوميروس» ففخر «ايرخس» على «أوميروس» بكثرة الشعر وسرعة عمله، وعيَّره ببطء عمله وقلة شعره، فقال «أوميروس» : بلغنا أن خنزيرة بأنطاكية عيرت لبؤة بطول زمن الحمل وقلة الولد وافتخرت عليها بضد ذلك، فقالت اللبؤة : «لقد صدقت! إني ألد الولد بعد الولد، ولكنه أسد» – فالروية والعمل والتهذيب والتأنق تشف عنها العبقريات الخالدات للعباقرة الخالدين».

أحمد حسن الزيات – دفاع عن البلاغة ص: ٧٥، ٧٦.

المراجـع

١ – ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة صبيح بالقاهرة، ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م.

٢ – أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: على البجاوي ومحمد أبو الفضل، ط عيسى الحلبي بالقاهرة.

٣ – أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، مطبعة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٤٥م.

٤ – الرازي، مختار الصحاح ط أولى – بيروت ١٩٦٧م.

٥ – الجاحظ، البيان والتبيُّن، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط رابعة، القاهرة: ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

٦ – بدوي طبانة (د)، البيان العربي ط رابعة – مكتبة الانجلو المصرية ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

٧ – سيد قطب، النقد الأدبي: أصوله ومناهجه. ط رابعة، بيروت، ١٩٦٦.

٨ – عبدُ المتعال الصعيدي، بغية الايضاح ط سادسة، القاهرة.

* * *

أخي المواطن.. ان المكاتبات الرسمية، والمعاملات الحكومية والأوراق التي تحمل مخاطبات مهما كانت نوعيتها.. انها بعد فترة من الزمن تعتبر وثائق يمكن الاعتماد عليها كأحد العناصر الهامة لكتابة التاريخ.. فبادر أخي الكريم لتقديم ما بحوزتك للدارة..

«مع تحيات دارة الملك عبد العزيز»